السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

1- سقوط غرناطة 1492 وانعكاساته على الضفتين الإسلامية والأوربية

أ.د. عبد القادر فكاير

أولا: وقائع سقوط غرناطة

1- مملكة غرناطة والصراعات الداخلية:

بينما كانت مملكتا قشتالة وأراغون في طريقهما إلى التوحيد، وبصدد تكوين دولة أسبانيا الحديثة، كانت مملكة غرناطة تعيش أياما حاسمة من تاريخها يحكمها السلطان أبو الحسن منذ سنة 1465، الذي كان يتسم بالشجاعة والميل إلى الجهاد ، فقد شرع في تحصين مملكته وتقوية جيشه ، و بادر إلى قتال النصارى، وتمكن من استرداد بعض القلاع والحصون، كما أوقف دفع الجزية التي كان يدفعها والده إلى مملكة قشتالة . ولكنه ما فتئ أن واجه في بداية حكمه ثورة من أخيه أبو عبد الله المعروف بالزغل، الذي كان واليا على مالقة ، مستعينا بملك قشتالة هنري الرابع ، ودام النزاع بينهما ثلاثة سنوات، انتهى بابرام الأخوين لمعاهدة صلح يبقى بموجبها أبوعبد الله الزغل حاكما مستقلا على مالقة وأحوازها. وفي سنة 1478 أرسل الملكين الكاثوليكيين سفيرا إلى غرناطة يطلب من أبو الحسن دفع مؤخر الجزية ، فرد الملك على السفيربالرفض.وهكذا اختار أبوالحسن المواجهة بدل الخضوع، فاستولى على قلعة الصخرة سنة 1481. وذكر عنه أنه استسلم إلى حياة الدعة والترف، اقترن خلالها بجارية رومية اسمها ثريا التي وقد أنجبت له ولدان، وكان لأبي الحسن ولدين آخرين من زوجته الأولى عائشة، المعروفة "بالحرة "، وهما أبوعبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف. ورغبة منها في منع أكبر أبناء عائشة لولاية العرش ، وترشيح أحد أبنائها لهذا المنصب ؛ راحت ثريا تضع المكايد، ضد عائشة وتؤثر على السلطان إلى أن أقنعته بوضع الملكة وولديها في السجن . لقد أثار هذا العمل غضب كثير من الأشراف. وبمساعدة أنصارها من بني سراج تمكنت عائشة أن تفر من معتقلها مع ولديها وذلك في سنة 1482، وتوجهت إلى وادي آش في جبال البشرات، وهناك التحق بهم عدد كبير من الأتباع. وقامت إثر ذلك ثورة قام بها أغلب سكان غرناطة يدعون للأمير أبوعبد الله ضد أبيه أبي الحسن الذي كان مشغولا في محاربة النصارى في الدفاع عن لوشة. فلم يستطيع هو وأنصاره إخضاعهم لسلطته ، ففر إلى مالقة حيث أخوه أبو عبد الله الزغل، بينما جلس ابنه أبو عبد الله محمد وذلك في أواخر سنة 1482 .

2-غرناطة بين الحرب الأهلية وهجمات النصارى:

كان النصارى يترقبون كل ما كان يحدث بين المسلمين ، فاجتمع قادتهم في مدينة انتقيرة مع قواتهم البالغ عددها 2700 فارس ، وعدة كتائب قصد احتلال مالقة . غير أن

أبوعبد الله الزغل استطاع رد هجومهم في معركة الشرقية وتمكن من القضاء على نحو 3000 رجل، ذلك في شهر مارس 1483. وكان أبو الحسن في تلك الأثناء يقاتل القوات الموالية لابنه في منطقة المنكب حيث تفوق عليه في موقعة الدب .

أراد أبو عبد الله أن يحذو حذو عمه إثر الانتصار الذي حققه على الأسبان في مالقة . فتحت تشجيعات الأمير علي العطار، خرج على رأس قوة تتألف من 9000 من المشاة و700 فارس متوجها إلى قرطبة، وعندما بلغ بلدة لوشينا(Lucina) ، واجه قوات النصارى في معركة عنيفة، انهزم فيها جيشه ، وخسر أكثر من 5000 بين قتيل وجريح، كان من بين القتلى علي العطار، ومن بين الأسرى الملك أبو عبد الله ، الذي اقتيد إلى قرطبة حيث سجن في قلعة بيانة ، وذلك في أفريل 1483 .

حاول الغرناطيون تجاوز محنتهم ، حيث اجتمع أعيانهم وقرروا استدعاء أبو الحسن الموجود في مالقة ليتولاهم ، لكنه اعتذر عن تلك المهمة ، وتنازل عن العرش لأخيه أبو عبد الله الزغل ، وتوحدت الملكة التي كانت منشطرة إلى قسمين . لكن أسر أبوعبد الله لدى النصارى كان له انعكاسات خطيرة على المسلمين، حيث كان الملك الأسير ضعيف الشخصية غير متمتع بالخصال الباهرة التي كان يتصف بها أسلافه من بني الأحمر، لقد كان يرغب في العودة إلى عرش غرناطة بأية صورة كانت.

أدرك أعداؤه تلك الصفات، ولما أصبح مهيئا لكل ما يريدون عقدوا معه معاهدة سرية ، مما جاء فيها : أن يعترف بالطاعة والتبعية للتاج الأسباني ، وأن يدفع لهم جزئي سنوية قدرها 12 ألف دوبلا من الذهب. ثم أطلق سراحه في أوائل سنة 1485، بعد أن قضى في الأسر أكثر من سنة ، وتوجه رأسا إلى حي البيازين الذي كان يدين له بالولاء، وتحصن القصبة حيث كانت أمه تنتظره . ولما انتشر الخبر بين الناس انقسموا بين مؤيد لأبي عبد الله وبين من كان مؤيدا لوالده أبي الحسن .وقامت من جديد الحرب الأهلية بين الطرفين استغلها الأسبان في الانقضاض على الحصون والحواضر الإسلامية فاحتلوا مدينة رندة سنة 1485. وتواصل خطر النصارى وسط فتنة غرناطة الداخلية ـ حيث كان الطرفان في حالة مفاوضات بهدف الوصول إلى صلح ـ فهاجموا مدينة لوشة ، التي كانت من نصيب عبد الله الصغير واحتلوها سنة 1486 ، وقد شاع في تلك الأثناء بأن السلطان تظاهر بالدفاع عن المدينة باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة، صرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر. واحتل النصارى بعد ذلك مجموعة من الحصون الإسلامية منها حصن ملكين، قلنبيرة ، منتفريد ، الضحة، الصخرة. ثم قاموا بتحصينها وترميمها وتزويدها بالقوات العسكرية استعدادا لحصار غرناطة. لم يتوقف فيردناند عن الكيد للمسلمين في ظل الحرب الأهلية التي ازدادت حدة في أواخر سنة 1486 ، فعندما التحق أبو عبد الله الصغير بحي البيازين قام فرديناند بتقديم له العون المادي والعسكري ، وقام من جهة أخرى بحملة على مدينة بلش، ورغم خروج الزغل إليها واستماتة أهلها للدفاع عنها ،إلا أنها سقطت في يد النصارى في أفريل سنة 1487 ، وتفرق أهلها في مختلف أرجاء الأندلس الإسلامية ، ومنهم من قطع البحر إلى شمال إفريقيا. ثم توجهت أنظارهم إلى مالقة أحد الثغور الإسلامية المنيعة ، ونقطة اتصال بالممالك المغربية. ولقطع ذلك الاتصال حاصرةها برا وبحرا ، وقاوم أهلها وصمدوا في وجه الحصار ، حتى نفذ ما كان لديهم من

الزاد حتى استهلكوا حيواناتهم ، ومات الكثير منهم جوعا، عندئذ استسلموا ودخل العدو بلدهم وذلك في أوت 1487، بعد حصار دام 3 أشهر .

ونتيجة لتلك الأخطار أوفد أبوعبد الله الزغل سفارات إلى الممالك المغربية ومصر والدولة العثمانية يطلب المساعدات، لكنه لم يتلقى شيئا بسب الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الأخرى. ولكن يمكن التوقف عند حكام تلمسان ، فقد ذكر "ايرفينغ" أن الملك الزياني أبو عبد الله محمد الثابتي أرسل مبعوثا يحمل هدايا إلى الملكين الكاثوليكيين، وطلب منهما أن يعفوا عن سكان مدينة مالقة الذين أسروا وسبوا ، ومنحهم نفس الوضع الذي كان عليه سكان المدن الأخرى التي كانت تابعة لهما.

بعد سقوط مالقة لم يبق للمسلمين من المواقع المطلة على البحر سوى المنكب والمرية يمكن لهم الاتصال بإخوانهم في الممالك المغربية ، أو وصول المتطوعين عبرها. وتمهيدا لحصارهما وقطع الإمدادات عنهما؛ شرع فيرديناند في احتلال الحصون والقرى القريبة من الثغرين، ثم استولى على ثغر المنكب في خريف سنة 1489 ، وبعدها فرض الحصار على المرية ، وأجبر أهلها على التسليم في شهر فيفري 1490، وخرج عدد كبير من سكانها إلى سواحل بلاد المغرب.

وبعد ما أكمل فيرديناند السيطرة على جميع الثغور الإسلامية وعزل أهل غرناطة من الاتصال بالمسلمين في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، احتل "بسطة" التي كانت تحت سلطة الزغل الذي كان في معقله بوادي آش ، فتركها لمصيرها تقاوم لوحدها، وسقطت في النصارى في ديسمبر 1489 بعد حصار دام أكثر من 6 أشهر ، وغادرها أهلها إلى وادي آش ، آخر معقل بقي يحكمه أبو عبد الله الزغل ، ولما أدرك هذا الأخير بعدم جدوى المقاومة ، لكونه أصبح محاصرا من جميع الجهات ، فضل الاستسلام والانضواء تحت طاعة فرديناند. لكنه أدرك بعد حين عدم قدرته على العيش في ذلك الوضع المهين ، فتنازل عن الحكم وترك الأندلس وهاجر إلى المغرب الأوسط في سنة 1490، حيث نزل بوهران ثم انتقل إلى تلمسان حيث قضى فيها بقية حياته.